الفصل الثاني
الأقلية في المجال المعرفي

● **توطئة :**

يمكن بادئ ذي بدء الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أعلم البشرية أن العلم الذي يمكن أن يحصله الإنسان قليل بالنسبة لعلم الله المطلق فقال : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الاسراء : ٨٥] فقد ذكر الزمخشري أن الرسول ﷺ لما أنبأ بني إسرائيل وغيرهم عن بعض ما سألوه تعجيزا، قالوا «نحن مختصون بهذا الخطاب – قوله : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾» - أم أنت معنا فيه ؟ فقال بل نحن وأنتم، لم نؤت من العلم إلا قليلا، فقالوا : ما أعجب شأنك ساعة تقول : ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً** ﴾ وساعة تقول هذا، فنزلت ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ...** ﴾ وليس ما قالوه بلازم أن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة فيوصف الشيء بالقلة مضافا إلى ما فوقه وبالكثرة مضافا إلى ما تحته، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة، وقيل هو خطاب لليهود خاصة لأنهم قالوا للنبي ﷺ، قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً** ﴾ فقيل لهم إن علم التوراة قليل في جنب علم الله»(١).

فالعلم الذي أوتيه الإنسان عن الحقائق الغيبية والكونية وحتى النفسية والاجتماعية والتاريخية قليل جدا بالنسبة إلى علم الله المطلق، ولكن المعرفة التي نود أن نتحدث عنها هنا بالنسبة للبشرية هي الفقه بما أنزله الله على الإنسانية، لتنتفع به في المجالات كلها : الروحية والاجتماعية والخلقية وغيرها.

والآيات الصريحة في حصر العلم والفقه في الأقلية هي :

١ – ﴿ **قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [الكهف : ٢٢].

---

(١) الكشاف : ٢/٤٦٤.

٢ ـ ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الفتح : ١٥].

فالآيتان تحصران العلم والفقه في القلة، ولكن الأولى تتحدث عن العلم والثانية تتناول الفقه وهما ليسا شيئا واحدا لذلك سنحلل كل واحدة في مبحث خاص.

المبحث الأول : طبيعة العلم عند الأقلية :

الآية الأولى وهي قوله تعالى : ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ تحصر العلم بحدث تاريخي محدد ـ هو حقيقة أهل الكهف وعدد أصحابه ـ في الأقلية، وفي الوقت نفسه تجري ما يشبه المقارنة بين العلم الحق والمطلق وهو علم الله الذي لا يخفى عليه شيء، وبين علم الإنسان المحدود الذي لا يكاد يتجاوز المعطيات الحسية البسيطة التي لم تحجزها بعد الحجب المكانية والزمانية، فإن حجبتها دخلت في دائرة المجهولات، لأن سيطرة الإنسان على الزمان والمكان سيطرة محدودة تبعا لمحدودية طاقته وأدواته في الإدراك.

وقد عبرت الآية بصيغة التفضيل مسندة إلى الله تعالى لتفيد « أن علم الله بعدتهم هو العلم الكامل، وأن علم غيره مجرد ظن وحدس قد يصادف الواقع وقد لا يصادفه » (١).

ثم إن الناس يتفاوتون في العلم بعد ذلك تبعا لطاقاتهم وتقواهم واطلاعهم وتحكمهم في المناهج المختلفة، إذ حتى « العلوم الدينية وهي فقه طريق الآخرة إنما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء » (٢)، وكمال العقل في مجال ما من مجالات المعرفة الممتدة إلى مالا نهاية يكون بتعميق النظر فيه، لأن التعمق في دقائق العلم يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه (٣)، أي أن العلماء يتفاوتون

(١) التحرير والتنوير : ١٥/ ٢٩٣.
(٢) التدبير : ١/ ٢٠٣.
(٣) إحياء علوم الدين : ١/ ٢٨.

في طاقاتهم العقلية من حيث قوة الذكاء وقوة الذاكرة، ويتفاوتون في البصائر تبعا لتقواهم وزادهم من الفتح الرباني، ويتفاوتون من جهة ما ألفوا من استخدام للأدوات المنهجية الموصلة بانتظامها إلى إدراك الحقائق العلمية تبعا لاختلاف المناهج المناطة بالغايات والأهداف وهي :

- منهج أهل الدراية والعقل.
- منهج أهل التجربة والحس.
- منهج أهل الرواية والنقل والخبر أو المنهج السمعي.
- منهج أهل الاعتبار وهوالمنهج الحسي حين تدخله عناصر الإيمان والتقوى، ليعبُر من الحادثة الحسية إلى ما وراء الحس بواسطة اكتساب طاقة روحية تمنح العقل قدرة فاعلة في الحاضر والمستقبل، كما رأينا (١).

ومن البديهي أن يرتبط المنهج الاعتباري بالفقه أكثر من ارتباطه بالعملية الذهنية أو التجريبية، ولو أنه يرتبط بها كذلك بعض الشيء، لأن عملية الاعتبار تتطلب فقه الواقع الحسي بدقة ليعبر منها إلى غيرها من المستنبطات الذهنية، يقول الغرناطي: بصدد الحديث عن الفرق بين لفضي (يفقهون) و(يعلمون) من قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ** ﴾ وهما الآيتان (٩٧-٩٨) من سورة الأنعام : « مرجع العلم بنشأة الإنسان وتقلبه من صلب إلى رحم، وارتباط أعضائه الظاهرة والباطنة، وجمع أجزائه وتصرف كل عضو في ماله خلق، واحتياج الأعضاء بعضها إلى بعض وجري ماوكل منها بغذاء الإنسان اجتذابا وانتحالا وطبخا وتقسيما وتجزئة على الأعضاء وإتقان كل عضو منها وجرى بما يسر له، إلى غير ذلك مما يبسطه من تكلم في التشريع، فالعلم بهذا كله جملة

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في الفصل السابق

وتفصيلا مما لا يحصل بالسمع والبصر وإنما يطلع عليه بالاعتبار والتفكر من ذوي الفطن السالمة والنظر العقلي السديد والفهم المصيب، فناسب هذا قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ والفقه التفهم والتفطن»[1].

إن هذا النص من كلام الغرناطي يوضح أن الفقه غير العلم؛ لأن الفقه في نظره يستخدم أداة العقل بصورة أدق وأعمق ليستنبط الحكم على الشيء، بينما العلم يقوم على النقل الذي أداته السمع أو البصر، وفي نظره لقد وضع في الآية لفظ العلم مع المعرفة التي يمكن التوصل إليها بالنظر المجرد كملاحظة أوضاع النجوم للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، بينما وضع لفظ الفقه مع ما يبين العلاقة بين نشأة الإنسان من نفس واحدة والفروق القائمة بعد ذلك بين أحواله من استقرار واستيداع، ويصل في النهاية إلى النتيجةليقرر أن الفقه غير العلم لأنه «لا يحصل بالسمع والبصر وإنما يطلع عليه بالاعتبار والتفكر من ذوي الفطن السالمة والنظر العقلي السديد والفهم المصيب، فناسب هذا قوله تعالي: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ والفقه التفهم والتفطن».

فمن أوتي القدرة على التحكم في آليات منهج من هذه المناهج - الدراية، أو التجربة والحس أو النقل - فقد أوتي الحكمة في مجال معرفي يمكنه السيطرة عليه سيطرة نسبية، تطرد مع مستوى تلك الحكمة، وهو الذي ميز البخاري ومسلم عن غيرهم في مجال الرواية، وميز الفارابي و ابن رشد في مجال الدراية، وميز ابن سينا وابن الهيثم قديما وبعض علماء الغرب حديثا عن بعض في مجال الملاحظة والتجربة الحسية، وميز ابن خلدون وابن نبي عن غيره في مجال الاعتبار.

وعلى هذا فإن الله قد يؤثر بعض عباده بعلم مميز فيعلمهم ما لم يعلمه غيره ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ كما آثر الخضر بالعلم اللدني، وآثر محمدا ﷺ بالقرآن الكريم. ولذلك كانت جملة ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

---

(1) ملاك التأويل: ١/٤٦٤.

«مستأنفة استئنافا بيانيا لأن الإخبار عن الله بأنه الأعلم يثير في نفوس السامعين أن يسألوا : هل يكون بعض الناس عالما بعدتهم علما غير كامل، فأجيب بأن قليلا من الناس يعلمون ذلك، ولا محالة هم من أطلعهم الله على ذلك بوحي، وعلى كل حال فهم لا يوصفون بالأعلمية لأن علمهم مكتسب من جهة الله الأعلم بذلك» (١).

وهكذا يتجلى لنا أن الله يريد من هذه التنبيهات المستمرة لمحدودية علم الناس أن يعلِّم البشرية المنهج الصحيح في التفكير والنظر، قال قطب : «أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان، وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله»(٢).

وفي القرآن إشارات واضحة الدلالة في ضرورة مراعاة الحدود المنهجية للإنسان كقوله تعالى : ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران : ٦٦] وقوله : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ [الإسراء : ٣٦].

ومن كل ذلك يتبين لنا أن العلم منحصر في القلة، لأسباب مختلفة منها طبيعة المناهج المختلفة التي يعد دورها ضيقا تبعا لوسائلها وأهدافها وغاياتها، ومنها اختلاف الطاقات البشرية التي أودعها الله في العقول والنفوس والأفئدة، إذ قلما نجد إنسانا أوتي جوامع المناهج .

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الإنسان في حد ذاته يميل بحكم سيطرة الشهوات عليه إلى استخدام المناهج الحسية أكثر من غيرها مما جعله يجهل أغلب الحقول المعرفية الروحية، وهذا مجرب ومعاين في حياتنا المعاصرة، إذ نجد نسبة

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/ ٢١٣

(٢) في ظلال القرآن ٢٥/ ٢٢٥٧